المنهجيـــة المعجميـــة العربيـــة

بيـــــن

الصوت والمعنى والباب والفصل والمصطلح

الدكتور عمر موسى باشا

رئيس قسم اللغة العربية وآدابها

في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة دمشق

اهتم العرب القدماء كثيرا بلغتهم، لأنها اللغة الفصحى المقدسة التي أُنزل بها القرآن الكريم. ومن هذا المنطلق فإن اللغة العربية كانت قطاف التطور اللغوي للعربية القديمة، عبر عصورها الجديدة، فبلغت قمة نضجها الفني حين ظهر الإسلام.

وليس من باب المصادفة، أن يشير المعجميون في خطب معاجمهم إلى أهمية اللغة العربية، وإحاطتها بهالة من التقديس والإعجاب بما فيها من أصالة تكوينية وحداثة توليدية، صرفا واشتقاقا وحركات ودقائق معنوية، يضاف إلى ذلك هذا الشمول والاتساع والغزارة في الأصول، ذلك لأن العربية الأخيرة جمعت كل سابقاتها، فهي لهذا السبب أغنى لغات الأرض قاطبة.

وليس من باب المصادفة أيضا في مقدمة ابن منظور أن يشير إلى الحديث النبويّ الشريف:" أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي"(1) .

ومن هذا المنطلق اهتم اللغويون العرب القدامى بوضع مصنفات تجمع شمل المفردات اللغوية المتفرقة، ضمن التحديد الذي يلتزمونه مثل مصنفات الإبل والخيل، والوحوش والجراد، والحشرات، وغيرها...، ولم يكتفوا بذلك، وإنما شمل تصنيفهم الجمعي الإنسان وغيره.

لن نتحدث عن تاريخ المعاجم، ولا بد لنا من تعريف لفظ(المعجم) الذي أُطلق على هذا النمط من التصنيف، ومن المفيد جدا أن نشير إلى تطور لفظ(المعجم).ذكر ابن جني أن مادة (عجم) للإبهام والإخفاء وضد البيان؛ وذكر الجوهرى أن " الأعجم الذي لايفصح ولا يبين كلامه ، وإن كان من العرب" و(أعجم الكتاب) بخلاف أعربه، والمعجم هو النقط بالسواد ، يقال: أعجم الكتاب أي نقطه.

أما الخليل فقد عرّف المعجم بقوله:"الأعجم الذي لايفصح، والمعجم: حروف الهجاء المقطّعة لأنها أعجمية، وتعجيم الكتاب: تنقيطه كي تستبين عجمته وتصحّ" (2) .

والملاحظ أن الخليل كان أدق من عرّف المعجم من القدماء، فنقله من معناه الأول إلى معناه الاصطلاحي الذي استخدمه العلماء اللغويون من بعده. ومن المفيد أن نشير بعد هذا التقديم والتعريف إلى أن المعجميين سلكوا ثلاثة سبل في بناء المعجم العربي بدءا بالخليل بن أحمد الفراهيدي ، صاحب أول معجم علمي لغوي في تراثنا العربي.

ويمكن أن نجمل هذه السبل الثلاثة في المناهج

التالية: وهي المنهج الخليليّ، والمنهج الدريديّ، والمنهج الجوهريّ.

المنهج الخليلـــــيّ

مما لاشك فيه أن أبا عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى سنة 175هـ) كان الرائد اللغوي الأول ، وصاحب أول تصنيف معجمي في تراثنا العربي.

لقد أُوتي عبقرية لغوية متميزة بقيت متجاهلة، أومجهولة، في عصره، أومن جاء بعده من اللغويين، والغريب أن بعضهم تبنى بعض آرائه اللغوية، واستشهد بها في تصانيفه، و لم يشر إلى صاحبها الأول ، حتى إنه لم ينج من التهجّم عليه حسداً له، والغض مما توجه إليه.

أبرز محققا (العين) أهمية الخليل في الريادة اللغوية، وقد نوّها بالأسبقية، ليس على النطاق العربي فحسب، وإنما ضمن السبق اللغوي فيما يتعلق بعلم الأصوات وعلم وظائف الأصوات.

ومما قالاه في التقديم " أن الخليل قد وضع أول معجم للعربية، فلم يستطع أحد ممن تقدمه، وممن عاصره أن يهتدي إلى شيء من ذلك" (3) .

واستطرد المحققان فذكرا " أن صنعة أول معجم في أية لغة من اللغات، على نحو وترتيب جديدين، لاسابق لهما، لهو من أعمال الصفوة العباقرة الخالدين"(4) .

لعل أول ما يلاحظ هذا السبق اللغوي في علم اللسان، وخاصة هذه الآراء التي اعتمدها في تصنيف معجمه، وذلك أنه نظر في أصوات الحروف الهجائية، فوجد أن الألف لا تصلح أن تكون الحرف الأول في المعجم الذي يصنفه ، وعلّل ذلك بقوله :

"والألف...ليست من أصل البناء، وإنما أُ دخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام، لتكون الألف عماداً وسلّماً للسان إلى حرف البناء، لأن اللسان لاينطق بالساكن من الحروف، فيحتاج إلى ألف الوصل...فافهم إن شاء الله"(5) .استخدم الخليل طريقة مبتكرة لم تخطر في بال أحد قبله من اللغويين العرب، فقد اعتمد الحروف الصحيحة، وأهمل حروف العلة، وجعل ترتيبها بحسب مخارج الأصوات، وآية ذلك كله اعتماده على التجربة الذاتية، وقد وضحها في تقديمه بقوله: "وإنما كان ذواقه إيّاها أنه كان يفتح فاه بالألف، ثم يظهر الحرف، نحو (آب) و(أن)، و(أخ)، و(أع)،و(أغ)، فوجد العين أدخل الحروف في الحلق، فجعلها أول الكتاب، ثم ما قرب منها، الأرفع فالأرفع، حتى أتى على آخرها، وهو الميم" (6). طبق الخليل هذه التجربة الذاتية، وتوصّل إلى الحقائق اللغوية التي وضحت القواعد الأساسية في بناء اللغة العربية على هذا الشكل الذي صارت إليه بعد مرورها في أطوار قديمة جدا، وقد سماها اللغويون اللغة القديمة، وهي اللغة التي تفاعلت مع اللغات العربية الأخرى، فبلغت قمة تطورها حين أُنزل بها القرآن العربي.

رتّب الخليل معجمه على نظريته الصوتية، وجعلها في ثماني طبقات، أضاف إليها طبقة تاسعة، وهي حروف العلل (فهذه تسعة وعشرون حرفا، منها أبنية كلام العرب)(7) .

ومن المستحسن أن نترك الخليل يشرح لنا نظريته اللغوية كما وردت في مقدمته، بقوله: "بدأنا في مؤلفنا هذا بالعين، وهو أقصى الحروف، ونضم إليه ما بعده حتى نستوعب كلام العرب، الواضح والغريب، وبدأنا

الأبنية بالمضاعف ، لأنه أخف على اللسان، وأقرب مأخذا للمتفهم"(8) .

لم يكتف الخليل بالاعتماد على العين لكونها نقطة البدء عنده، وإنما قارنها بغيرها من الحروف القريبة منها:(فأقصى حروف الحلق كلها العين) (9) . كما أضاف إلى ذلك قوله :(إن العين لاتأتلف مع الحاء في كلمة واحدة لقرب مخرجيهما) (10) .

شرح الخليل نظريته بقوله:

- فالعين، والحاء، والخاء، والغين، (حلقية).
- والقاف، والكاف (لهويتان) لأن مبدأهما من (اللّهاة).
- والجيم، والشين، والضاد (شَجْرِيّة)لأن مبدأها من (شَجْر الفم)، أي مخرج الفم.
- والصاد، والسين، والزاء، (أسْلية)، لأن مبدأها من (أسْلة اللسان) وهي مستدق طرف اللسان.
- والطاء، والتاء، والدال (نِطْعية) لأن مبدأها من (نِطْع الغار الأعلى).
- والظاء، والذال، والثاء (لِثوية) لأن مبدأها من (اللِثة).
- والراء، واللام، والنون (ذَلَقِيّة) لأن مبدأها من (ذَلَق اللسان) وهو تحديد طرفي ذَلَق اللسان.
- والفاء، والباء، والميم (شَفَوية)، وقال مرة(شفهية)،لأن مبدأها من الشّفة.
- والياء، والواو، والألف، والهمزة(هوائية) في حيّز واحد، لأنها لا يتعلّق بها شيء.

فنسب كلّ حرف إلى مدرجته وموضعه الذي يبدأ منه، وكان الخليل يسمّي الميم (مُطْبَقة) لأنها تُطبق الفم إذا نطق بها(11) .

وجدير بنا الوقوف عند الحروف الهوائية، وهي أربعة ليست في أصل البناء، لأن هذه الحروف يقال لها:(حروف العلل) (12) .

ومن المفيد أن نجري مقارنة لغوية بين حروف العلة في العربية، وفي غيرها. ففي اللغة الفرنسية مثلا ستة أحرف علة هي (a,e,i,o,u,y) منها حرفان متشابهان صوتيا هما الحرفان (a,e) وهما مثل (الألف اللينة) أو الساكنة، و الحرفان(o,u) ، وهما مثل (الواو)، والحرفان (i,y) وهما مثل حرف (الياء). وهكذا توحدت، وتشابهت الحروف العللية في اللغتين معا، وكذلك الأمر في اللغات الأخرى ولكل لغة خصائصها المميزة فيما يسمى بحروف العلة (voyelles).

أجرى الخليل التقليبات في الألفاظ العربية المجردة، وذلك بحسب التقليب والنقل أولا، وآخراً، ووسطاً، كما أشار إلى المستخدم منها، والمهمل الذى لم يجد له معنى في اللغة العربية، وهذا على جانب كبير من الأهمية، وقد لاحظ المحققان في حديثهما عن البناء المضاعف الثلاثي والرباعي أن الخليل استطاع أن يدرك "أن الفعل الثلاثي قائم على الثنائي وأن هذا الثنائي يصار به إلى الثلاثي عن طريق التضعيف وإما عن طريق زيادة صوت آخر" (13) .

وقد قورن في الزيادة والتقليبات ما هو موجود في اللغات الأخرى قياسا على ما يزاد في الأول باسم (السوابق Prefix) ، وما يزاد في الوسط باسم (الدوامج infixe)، وما يزاد في الأخير باسم (اللواحق Suffix).

بَيْد أننا يجب أن نفرق في الإضافات الثلاث، أولا، ووسطاً وآخِراً بين العربية وغير العربية؛ فهذه الإضافات

ليست إضافة إلى الأصل، وإنما هي تبدلات داخلية تقديما أوتأخيرا، ولكنها ليست إضافة تغيّر المعنى الأصلي للكلمة العربية كما هي الحال في اللغات الأخرى.

يتضح مما تقدم معنا أن الخليل كان صاحب نظريات صوتية في الكتاب المقدم، وأنه استطاع بذكائه وعبقريته أن يكون الرائد العالمي الأول في فقه اللغة عامة، وعلم الصوتيات، ووظائفه خاصة.

كما أنه استطاع من خلال هذه النظريات أن يبني أول معجم عربي، له منهجه الخاص به، وقد كان سباقا في التصنيف المعجمي لا في العربية فحسب، وإنما في تاريخ اللغات العالمية قاطبة، وذلك وفق هذا المنهج الذي كان فيه الرائد، وكان نسيج وحده في المنهج المعجمي الذى وضعه لنا، ووضحه وبين بواعثه، وصنف أحواله وصوره المختلفة.

لم يقتصر المنهج الخليلي على الخليل نفسه، وإنما تأثر به عدد من اللغويين فكوّنوا مدرسة خاصة. ومن هؤلاء القالي (المتوفى سنة 356هـ) فقد وضع كتابه (البارع في اللغة)، والأزهري (المتوفى سنة 370هـ) وكتابه (تهذيب اللغة)، والصاحب بن عباد (المتوفى سنة 385هـ) وكتابه (المحيط)، وابن سيده المتوفى (سنة 458هـ) وكتابه(المحكم).

درس الأستاذ الدكتور حسين نصار هذه المدرسة الخليلية، وتحدث عن خصائصها وعيوبها، بقوله: "يؤلف العين والبارع والتهذيب والمحيط والمحكم ومادار حولها من كتب مدرسة واحدة في تاريخ المعجمات العربية. والرابطة المشتركة التي تجمعها ترتيبها حروف الهجاء بحسب مخارجها، وجعل هذا الترتيب أساس تقسيمها إلى كتب ثم تقسيم هذه الكتب إلى أبواب تبعا للأبنية، ثم ملء هذه الأبواب بالتقاليب " (14) .

واستطرد المؤلف فتحدث عن الخلافات بين هذه الكتب التي التزمت النهج الصوتي فقال:"والتزمت جميعها ترتيب (كتاب العين) للمخارج إلا (البارع) الذي سار على ترتيب مخالف أخذ أغلبه من ترتيب سيبويه مع خلطه بأشياء من ترتيب كتاب العين" (15) .

كما وضح أيضا بعض الدقائق في الاختلاف بين أرباب هذه المدرسةإذ قال:"كان هدف الخليل حصر اللغة واستقصاء الواضح والغريب منها، وهدف الأزهرى تهذيبها وتخليصها من الغلط والتصحيف...، وهدف ابن سيده جمع المشتت من اللغة في الكتب المتفرقة، وتصحيح ما فيها من أخطاء في التفسيرات النحوية.

ويبدو أن هدف القالي يشبه هدف الأزهري، وأن هدف الصاحب بن عباد استدراك مافات سابقيه من غريب".

المنهج الدريديّ

ظهر بعد المنهج الخليلي منهج جديد يخالفه لكونه غير عملي، وغير ميسر للشداة من طالبي العلم، ويبدو أن هذا كان لايصلح إلا للصفوة الخاصة من العلماء الذين يدركون أصول التقليبات والاشتقاقات، وذلك بحسب الترتيب الألفبائي للحروف الهجائية مع مراعاة الأبنية اللغوية، بدءاً من الحرف الأول إلى الحرف الأخير.

أمّا هذا المنهج الجديد فينسب إلى ابن دريد (المتوفى سنة 321 هـ / 933 م)، وهو صاحب المعجم العربي المعروف (جمهرة اللغة)، وهو مؤلف من ثلاثة مجلدات،

شفعها المستشرق كرنكو بمجلد رابع للفهارس العامة.

تحدث ابن دريد عن بواعثه لتأليف هذا المعجم بقوله: "وأملينا هذا الكتاب، والنقص في الناس فاش،والعجز لهم شامل..فسهّلنا وعره، ووطأنا شأزه (16)، وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة، إذ كانت بالقلوب أعبق، وفي الأسماع أنفذ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة،وطالبها من هذه الجهة بعيدا من الحيرة،مشفيا على المراد " (17).

وتحدث عن سبب تسمية معجمه باسم (جمهرة اللغة)، فقال:"هذا كتاب جمهرة الكلام واللغة، ومعرفة جمل منها تؤدي الناظر فيها إلى معظمها، إن شاء الله تعالى، وإنما أعرناه هذا الإسم لأنّا اخترنا له الجمهور من كلام العرب، وأرجأنا الوحشي المستنكر والله المرشد للصواب" (18).

طبق بشكل عام التسلسل الهجائي، وقد ذكر أهمية الحروف الألفبائية وخصائصها فقال في خطبة معجمه: "اِعلم أن الحروف التي استعملتها العرب في كلامها في الأسماء والأفعال والحركات والأصوات،تسعة وعشرون حرفا،مرجعهن إلى ثمانية وعشرين حرفا (19)منها حرفان مختص بهما العرب دون الخلق، وهما (الحاء والظاء)؛ وزعم آخرون أن الحاء في السريانية والعبرانية والحبشية كثيرة، وأن الظاء وحدها مقصورة على العرب."

ثم استطرد موضحا تصنيفه الأبنية، فذكر أن " الكتاب مقسم عنده إلى الثنائي المضاعف، وما يلحق به، فالثلاثي وما يلحق به، فالرباعي وما يلحق به، والخماسي ومايلحق به".

وذكر بعد ذلك أنه لم يكتف بذلك، وإنما "ألحق بهذه الأبواب أبوابا للّفيف وأبوابا للنوادر".

كما أشار إلى أن ابن دريد لم يبدأ بباب الهمزة، كما هو واجب، وإنما بدأ الثلاثي الصحيح بباب الباء، وأخّر (باب الهمزة) فجعله في باب النوادر في الهمز(20).

أحدث ابن دريد حركة نقدية لغوية في عصره بين مادح وقادح، وعكف عليه الأدباء دراسة وحفظا واختصارا وإيضاحا ونقدا وتجريحا.

والمعروف أن الصاحب بن عباد اختصر الجمهرة وسماه (جوهرة الجمهرة)، وقد كتب حين فرغ من اختصاره(21) :

لّما فرغنا من نظام (الجَوْهَرَهْ)

اعورّتِ (العينُ) و(ماتَ الجمهرَهْ)

والملاحظ أن ابن عباد عرّض بالخليل وكتابه (العين)، وابن دريد وكتابه (الجمهرة). لم يقتصر الأمر على ذلك ، وإنما رأينا نفطويه يطعن في جمهرة ابن دريد،ويذكر أنه مسروق من كتاب(العين)، فقال(22) :

ابن دريد بقره   وفيه عيّ وشره

ويدّعي من حمقه   وضع كتاب (الجمهره)

وهو كتاب (العين) إلاأنه قد غيّره

بَيْد أن ابن دريد هجاه قائلا:

إفٌ على النحو وأربابه

قد صار من أربابه (نفطويه)

أحرقه الله بنصف اسمِه

وصيّر الباقي صراخاً عليه

ومنها ستة أحرف للعرب، ولقليل من المعجم ، وهن (العين، والصاد، والضاد، والقاف، والطاء، والثاء) وماسوى ذلك فللخلق كلهم من العرب والعجم، إلا

الهمزة فإنها لم تأت إلا في الابتداء، وهذه الحروف تزيد على هذا العدد، إذا استعملت فيها حروف لاتتكلم بها العرب إلا ضرورة، فإذا اضطروا إليها حوّلوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف على مخارجها..."(23).

لم يكتف ابن دريد بهذا التقسيم العام الثنائي، وإنما شفعه بتقسيم ثنائي ثان ضمن سبعة أجناس في قوله:"الحروف سبعة أجناس، يجمعهن لقبان (المصمتة) و (المذلقة): (فالمذلقة) ستة أحرف. و(المصمتة) اثنان وعشرون حرفا، ثلاثة منها(معتلات)، وتسعة عشر حرفا (صحاح).

- فمن المصمتة الصحاح(حروف الحلق)وهي (الهمزة، والهاء، والعين، والخاء، والغين) مأخذهن من أقصى الحلق إلى أدناه. أما (الهمزة) منهن، فمن مخرج أقصى الأصوات، (والهاء) تليها، وهي من موضع النفس و(الحاء) أرفع منها، وهي أقرب حرف يليها..

- أمّا (المذلقة) من الحروف فهي ستة، ولها جنسان:(جنس الشفة): وهي (الفاء، والميم، والباء).و (الجنس الثاني): من المذلقة...وهي(الراء، والنون، واللام) وهن ممتزجات بصوت الغنة ..."(24).

وضح الدكتور حسين نصار منهجه في معجمه، وأشار إلى الاضطراب في أبوابه، وذكر أن تصنيفه الأبنية هو "تصنيف الخليل مع بعض الزيادات، فهي عنده ثلاثية، ورباعية، وخماسية كالخليل، وملحقات بكل صنف منها، ويريد من الثلاثي الثنائي المضاعف، والثلاثي معاً"(25) .

يبدو أن هذا النهج الدريدي الألفبائي المركّب لم يلق القبول المطلق من اللغويين ، نخص منهم ابن فارس(المتوفى سنة 395هـ) فقد صنف معجمين: أولهما (المقاييس) و(المجمل) ولكن هذا المنهج بدأ يتطور عند الزمخشري (المتوفى سنة 538 هـ) فيأخذ شكله المبسط بإهمال التقليبات في الأبنية، كما كان عليه عند ابن دريد وغيره، وهكذا كان هذا المنهج الشكل الأمثل للمعاجم لا في عصره، وإنما في العصر الحديث.كذلك كان هذا المنهج الألفبائي المبسط نقطة التحول الكبرى في المنهجية المعجمية العربية، شكلا ومضمونا لأن المعاجم تحوّلت من اللغة إلى البلاغة والأدب.

ومن المؤسف أن هذه المنهجية المعجمية قد انحسرت بعد طغيان المعاجم بعد ذلك بالاعتماد على الأبواب والفصول.

يضاف إلى هذه المعاجم الألفبائية معجمان: معجم (مختار الصحاح) للرازى(المتوفى سنة 666 هـ)(والمصباح المنير) للفيومي (المتوفى سنة 770 هـ/1368 م).

المنهج الجوهريّ

كان اللغويون يحرصون منذ القرن الرابع الهجري على تصنيف معجم جديد يستطيع من خلاله الباحث الحصول على المعرفة اللغوية المبتغاة، ويبدو أن المنهَجَيْن السابقين، لم يحققا للعلماء المنهج المطلوب، ولا سيما أن كثرة استخدام السجع في النثر، والتزام الروي الموحد في القافية الشعرية حتّم على اللغويين إيجاد منهج جديد يساعد الكاتب والشاعر معاً على العثور على المفردات اللغوية ذات الحرف الموحد في لام الكلمات والأفعال، وهكذا ظهرت المعاجم التي اتخذت الاعتماد على الحرف الأخير، فسمّته (باباً) بحسب الحروف الألفبائية، ثم التزم الأمر نفسه في أوائل كل كلمة بدءا بحرف الألف وسمي (فصلا).

والمعروف أن اللغوي العلاّمة أبا نصر إسماعيل بن حماد الجوهري(المتوفى سنة 393هـ/1003م) كان الرائد في هذا المنهج الجديد ، منهج الأبواب والفصول . يقول في خطبة معجمه: " أما بعد، فإني قد أودعت هذا الكتاب، فأصح عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها، وجعل الدين والدنيا منوطا بمعرفتها، على ترتيب لم أسبق إليه، وتهذيب لم أغلب عليه، في ثمانية وعشرين باباً، وكل باب منها ثمانية وعشرون فصلاً، على عدد حروف المعجم وترتيبها، إلاّ أن يهمل من الأبواب جنس من الفصول بعد تحصيلها بالعراق رواية، وإتقانها دراية ، ومشافهتي بها العرب العاربة، في ديارهم بالبادية، و لم آل في ذلك نصحا، ولا ادّخرت وسعا ، نفعنا الله وإياكم به"(26) .

أشار الدكتور نصار إلى أن الجوهريّ " لم يخرج عن هذا الترتيب إلاّ في الباب الأخير، إذ جمع فيه الألفاظ المنتهية بالواو والياء معاً، و لم يفرق بينهما، وختم المؤلف المعجم بباب الألفاظ المنتهية بالألف اللينة..."(27) .

استهل الجوهري باب الألف المهموزة بقوله:"نذكر في هذا الباب الهمزة الأصلية التي هي لام الفعل ، فأما الهمزة المبدلة من الواو نحو (العزاء)... أو من المبدلة من الياء نحو (الإباء) فنذكرهما في باب الواو والياء، إن شاء الله تعالى" (28) .وفي العودة إلى باب الواو والياء نفسه نجد الجوهريّ يستهله بقوله:"جميع ما في هذا الباب من الألف إمّا أن تكون منقلبة من واو مثل (دعا) أو من ياء مثل (رمى)، وكل ما فيه الهمزة فهي مبدلة من الياء أو من الواو... ونحن نشير في الواو والياء إلى أصولهما إن شاء الله تعالى"(29) .

أحدث معجم الصحاح ومنهجه في الأبواب والفصول، والحرص على التسلسل الهجائي في الأبواب أولا،وهي أواخر الأصول، ثم الالتزام التام في التسلسل الهجائي بحسب الفصل في الحرف الأول، فالثاني، فالثالث، وكان أمينا على التطبيق التسلسلي أبواباً أولاً، وفصولا ثانيا، مع مراعاة الالتزام نفسه في الحرف الثاني والثالث.

كثرت الدراسات اللغوية حول تاج اللغة، فظهرت حركة نقدية استهدفت دراسة مختصراته وتكملاته، وتحشياته، وانتقاداته، بالإضافة إلى كتب الدفاع عنه ، وكتب دراسة شواهده، كما أن أبا الحسين يحيى بن معط الزواوي المغربي (المتوفى سنة 628 هـ) شرح بنظم الصحاح، لكنه لم يكمله.

أما المعاجم الأخرى التي نهجت نهجه، فهي ذات أهمية كبرى منها، على سبيل التمثيل لا الإحاطة، كتاب (العباب) للصغاني (المتوفى 650 هـ)، و(لسان العرب) لابن منظور (المتوفى سنة 711 هـ) و(القاموس المحيط ، والقابوس الوسيط) للفيروز أبادي (المتوفى سنة 816هـ)، و(تاج العروس من جواهر القاموس) للزبيدى (المتوفى سنة1205 هـ) و(معيار اللغة) لميرزا محمد علي صادق الشيرازي ، وقد طبع معجمه بين عامي 1311–1314هـ.

هذه هي المناهج الثلاثة التي استخدمها اللغويون العرب، وقد بلغوا فيها من الدقة مبلغا تتضاءل عنده المناهج المعجمية الأخرى في العصور السابقة. ومما هو جدير بالذكر أن بعض هذه المناهج قد يكون متأثرا ببعض المؤثرات اللغوية كالهندية والسنسكريتية، وليس هذا مؤكدا لأن ذلك قد يكون بحكم المصادفة، وذلك لأن

القضايا اللغوية تتأثر فيما بينها. مهما يكن من أمر هذا كله فمما لاشك فيه أن المعجمية العربية كانت رائدة سابقة، واستطاعت أن تصل إلى نتائج هامة سبقت في بعض الأحيان الصوتيات الحديثة وعلم وظائف الأصوات.

ثمة أمر آخر، وهو أن المعجمية العربية كانت مظهرا من مظاهر الموسوعية العربية، ويمكن أن نعد بعض المعاجم موسوعات أدبية ولغوية لأنها انتقلت من الاصطلاح اللغوي إلى إغناء هذا الاصطلاح بما هو مأثور من القرآن والحديث والشعر، بالإضافة إلى الحِكَم والأمثال والشواهد المختلفة، ويكفي أن نحكم على ذلك من خلال المعجمات المطولة التي لم تبلغ شأوها أية معاجم أخرى، ففيها المعارف الأدبية واللغوية والتاريخية والجغرافية، ومن هذا المنطلق فإننا نشير إلى الأدب الجغرافي العربي من خلال معجم البلدان لياقوت الحموي.

هذه هي المعجمات العربية لها تاريخها المجيد في السبق المعجمي .ولقد بدأت المجامع العلمية في الوطن العربي وغيره بإصدار معاجم عربية حديثة، وأملنا كبير في أن نصل في القريب العاجل إلى مابلغته المعاجم الغربية الحديثة من الدقة في التصنيف المعجمي، هذا بالإضافة إلى التخصص الدقيق في نوع المعاجم في اللغة الواحدة، والاهتمام بالمصطلح العربيّ الموحّد .

أما المصطلح العربي فهو إشكالية اللغة العربية المصيرية في العصر الحديث، ذلك لأن الحضارة الغربية قد غزتنا وهيمنت علينا ، فأصبحنا نتخبط خبط عشواء في هذا الفيض من المصطلحات المستوردة والمستخدمة.

لقد أعرضنا عن رصد التراث العربي، وهو غني بكثير مما نحتاج إليه من المصطلحات، وكنا نستطيع أن نستنبط منه -- بعض ما استجد من ألفاظ الحضارة، ففي هذا التراث التليد طريف المصطلح العربي، نجد فيه ذخائر تستطيع أن تسدّ فراغا كبيرا في حقل المصطلحات ويمكن أن نتجاوزه حين تعوزنا الحاجة فنستمد الطريف من بعض المصطلحات غير العربية، ولكن بعد صهره وطبعه بالطابع العربي الأصيل وزنا و هيكلا.

ولنا في المنهج الخليلي حين شرع في وضع علم العروض، خير نموذج يحتذى فقد أغنى هذا العلم بمصطلحات عربية أصيلة اشتقت من التراث العربي، ومن طبيعة البيئة العربية، فأخذ من الخيمة العربية المعروفة الأوتاد والأسباب، وغيرها من المصطلحات العروضية بيْد أنه أعطاها دلالات جديدة في غير ما وضعت له أصلا ، ولكنه أوجد الوجه المشترك بين المادي والمعنوي.

يضاف إلى ذلك أن هذا العالم وحده استقى وأصّل المصطلحات العروضية كاملة، فلم يضف إليها من جاء بعده إلا النزر اليسير. نذكر على سبيل المثال اصطلاح العروض نفسه، فهو يُطلق في الأصل اللغوي على عدة معانٍ، منها الناقة التي لم ترض، ومنها الطريق في الجبل، ومنها إطلاقها على مكة والمدينة وماحولهما، ومنها الطريق الذي يعارضك إذا سرت فيه...

يضاف إلى ذلك ظهور اصطلاحات علمي النحو والصرف، واصطلاحات الحديث النبوي الشريف رواية ودراية، واصطلاحات علوم البلاغة العربية الثلاثة: البيان والمعاني والبديع، وغير ذلك من العلوم المختلفة، مما استجد في الحضارة العربية آنذاك.

وهكذا فإن اللغة العربية لم تكن لتعجز عن إيجاد أسماء لمسمياتها الجديدة، و لم تقع في إشكاليات

الاصطلاح، ذلك لأن المنهجية المعجمية العربية كانت سبيلهم في إغناء لغتهم عن طريق التوليد والمجاز والاشتقاق والإحداث والتعريب في معظم الأحيان. وقد يلجأون في بعض الأحيان إلى صنعة المصطلح المقتبس نفسه بعد تطبيق المنهجية العربية عليه، وذلك وفق الأوزان والمقاييس الاشتقاقية المعروفة في منهجيتهم المعجمية.

يذكر على سبيل المثال الشاعر آدم الأموي، ونشير إلى وصفه البراغيث:

بـلادٌ إذا زال النهـارُ تقـافَزَتْ

براغيثُها من بين مَثْنى وواحد

(ديازجة) شهب البطـون كأنهـا

بغال بريدٍ سُرَّحٌ في موارد

استخدم الشاعر كلمة معربة (ديازجة)، وهي جمع (دَيْـزَج).في القـاموس المحيـط:"الدَّيْـزَجُ مـن الخيـل معرب(دِيْزَهْ)، ولَمّا عرّبوه فتحـوه"(32).وفي اللسـان: "لاأعرف معناها هنا، إلا أن الديزج معرب (دِيزَهْ)، وهـي لون بين لونين، غير خالص."

ثم أشار صاحب اللسان إلى ما ورد في النهاية لابن الأثير في الحديث، " أدبر الشيطان وله هَزَج ودَزَج"(33).

ومن ذلك لفظة (الطسّوج)، وهي تطلق على الناحية وغيرها.

في اللسان:"الطسّوج:الناحية،والطسّوج حبتان من الدوانيق،والدانق أربعة طساسيج،وهما معربان " (34). ثم نقل صاحب اللسان قول الأزهري:"الطسّوج مقدار من الوزن كقوله:(قَرْبيون) بـ (طسّـوج)، وكلاهما معرب، والطسّوج واحد من طساسيج السواد، معربة".

وفي القاموس المحيط:"الطسّـوج كسفّود، الناحية، وربع دانق معرّب (طفسونج)"(35).

هذا كله يؤكد أن العرب استخدموا المصطلح المعرب وفق منهجهم اللغوي الخاص بلغتهم كما رأينا.

تطوير المنهجيّة في وضع المصطلح العربيّ

لابدّ لنا ، بعد التحدث عن المنهجية المعجمية العربية، وبيان أصولها وطرقها، من الإشارة الواضحة إلى أن اللغة العربية لجأت إلى المصطلح المعرّب، أو المترجم، مفردات وأساليب، ولم يحجم العرب عن استخدام المصطلح لفظا، ولكن بعد أن يوضع في طرائق المنهجية العربية، لفظا ووزنا وإيقاعا، ففي القرآن أكثر من مئة لفظ مما يدخل في مفهوم المصطلح المعرّب، وفق الطرائق والأساليب العربية المعروفة، بعد عملية الصهر والتعديل اللغويّ واللفظيّ والوزنيّ لتسبك في القوالب العربية، مما يجعلها عربية المخبر والمظهر، معرّبة النجار والإطار.

لقد تعدّدت - كما هو معروف- النشاطات العلمية المختلفة والمتفرقة لخدمة المصطلح العربي، ضمن أُطر النشاطات المجمعية والجامعية، ولجان التنسيق والتعريب لخدمة المصطلح ليوحّد، ويكون اللسان العربي منسجما مع معطيات العلم الحديث، والإسهام في اكتشافاته واختراعاته وتطوراته وتوحيد تسمياته ومسمّياته المختلفة، انطلاقا من أسماء الأعلام، أومن أسماء العاملين في هذه الحقول المعرفية الجديدة.

بَيْد أن الغريب حقا ألاّ نجد هذه المصطلحات سائغة ومقبولة في الجامعات والمجامع والأكاديميات والمؤتمرات، لاخلاف بينها. ونحن نلاحظ أن الوضع السياسي في الوطن العربي يلقي ظلاله وآثاره على ذلك كله، وقد أسهم بشكل فعّال في تعدّد الوضع والاجتهاد

لتبني المصطلح وتعريفه ، فلايتجاوز حدود القطر الذي أُقرّت فيه.

نذكر على سبيل المثال،لا الحصر، مكتب تنسيق التعريب، والجهود الحثيثة الجبّارة التي وضعت لتبنّي المصطلح الموحّد في حقول المعرفة العربية، وخاصة المعرّبة منها، فقد باءت بالفشل في استخدامها وتبنيها، وآية ذلك أن طغيان الفردية العربية في صنعة المصطلح، وتعدّد الأهواء والمشارب ، وتنوع الثقافات شرقية أوغربية، قد أدّى هذا كله إلى هذه الفوضى المصطلحية وتعدّدها، مجمعية أو جامعية أو مكاتب تنسيق التعريب والمصطلح العربي، والغريب أن نجد في البلد الواحد اختلاف المصطلح نفسه بين عالم وآخر، وبين جامعة ومجمع.

هذا هو الواقع الراهن للمصطلح العربي العلمي، وهو يمثّل الواقع العربي. ولكن ما ذنب الأمة واللغة والفكر لأنها غدت ضحية ذلك كله، ويكون بالتالي: العالم أو المثقّف أو المفكّر هو أيضاً الخصم والحكم، وهو المسؤول وضعا أو استخداما أو اقتراحا، سلبا أو إيجابا.

يتضح من ذلك العرض الصريح أننا أمام سبيلين:

أولهما: المصطلح الموحّد التراثي الأصيل، أو المولّد المستحدث، أو الجديد المستنبط.

ثانيهما: نشره وإشاعته بين الأوساط العلمية والفكرية وغيرها، وهو في اعتقادنا المفضل والأهمّ معا.

أما توحيد المصطلح فهو الأصل وعليه الاعتماد في ذلك كله، وهذا ماعجزنا عنه حتى يومنا هذا، وليس من المفيد أن نعرض عوامل تعدّد المصطلح الواحد، فلنا في أسماء الشهور تعددية عجيبة، لم نستطع حتى الآن توحيدها، وقس غيرها عليها، فهي معروفة لدينا؛ ولابد لنا لكي نوحّد المصطلح العربيّ من حركة جمع عامة شاملة، تستقرئ التراث العربي، وتطبّق ما أقرّته المجامع العربية وذلك بالاختيار والانتقاء المنهجي، وما استخدمته الجامعات وأقرته بمعزل عن المجامع مما وُضع أصلاً كلياً، أو أُلحق بالأصول العلمية تبيانا لما ورد فيها، وإيضاحا لمضمونها، بالإضافة إلى المصطلحات المختلفة التي وضعها بعض العلماء المختصين، العودة إلى هذه المؤسسات الجامعية والهيئات المجمعية والأكاديمية. ومما لاشك فيه أن الجامعات والمجامع تجتمع في هدف واحد، وإن اختلفت السبل والطرائق.

لكن هذا الجمع يتطلب تأليف لجان دائمة، وبذل جهود جبارة، لاستقصاء هذه المصطلحات المتعددة والمعربات المتفرقة. ولايكفي هذا العمل الجمعيّ الاستقصائي، وإنما يجب أن يُتنخّل ، ويختار الأصلح والأفضل من المصطلح مما يعطي الدلالة المطلوبة، والمعنى المحدّد لما اصطلح عليه، أو لما يوضع له. وهذه المرحلة ضرورية جدا لكي نعطي عملية الجمع فائدتها المرجوّة مما صنعناه على أعيننا ونجني قطافها المحمود.

نُتبع الجمع مرحلة التنسيق والتأليف والتصنيف بحسب الأنواع، وتتبنى هيئة معتمدة مشتركة مجمعية جامعية علمية موحّدة ذات اتجاهات مختلفة ولجان مشتركة ومنسقة، وبذلك يمكن توليد المصطلح وإقراره، ومن ثم استخدام ذلك في ضروب المصنفات العلمية والمجمعية والجامعية .

ولابد لنا لكي نؤدي مهمتنا العلمية في توحيد المصطلح من إنشاء لجان التنسيق والتطبيق الاصطلاحي، لها مهمات وصلاحيات الاعتراض على كل كتاب لايلتزم

تطبيق ما أقرّته اللجان المشتركة الرئيسية والفرعية معا.

أما سبل نشر المصطلح العربي وإشاعته فهي كثيرة، إذ لابد لكل مؤسسة من الاستئناس برأي اللجان الفرعية ثم اللجان الرئيسية.

كما لابد بعد هذا العمل العلمي الجليل العظيم من إعادة النظر في الكتب المنشورة المجمعية والجامعية والأكاديمية والتعليمية لتعديل المصطلحات المرتجلة تطبيقا لتوحيد المصطلح العربي المعتمد.

أما سبل نجاح ذلك فإنها تتطلب العمل المرحلي النشيط ليتم ذلك التوحيد المصطلحي في الأعوام السبعة الباقية من القرن العشرين ضمن منهج واحد يطبّق في الأقطار العربية، مشرقيّة ومغربيّة، فلا يهلّ القرن الحادي والعشرون، إلا وقد توحّدت المصطلحات العربية العلمية.

ولن يتأتى لنا ذلك ما دمنا نجتمع لنقرر، ولكن لاينفّذ من ذلك شيء، بعد أن ينفضّ المجتمعون، وتبقى هذه القرارات في بطون الدروج، ثم تذهب بعد إذن أدراج الرياح.

الهوامش:

(1) لسان العرب 7/1، خطة المؤلف.

(2) معجم العين ، مادة عجم،باب العين والجيم والميم معهما،ج 1 / 237-239.

(3) معجم العين، مقدمة المحققين، الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي،ج 1 / ص 8.

(4)المصدر السابق ج 1 / ص 8.

(5)المصدر السابق، ج 1 / ض 49.

(6)المصدر السابق، ج 1 / ص 47.

(7)المصدر السابق، ج 1 / ص 58.

(8)المصدر السابق ، ج 1 / ص 60.

(9)المصدر السابق ، ج 1 ص / 57.

(10)المصدر السابق ، ج 1/ ص 60.

(11)المصدر السابق ، ج 1/ ص 58.

(12)المصدر السابق ، ج 1/ص 59

(13)مقدمة العين للدكتور مهدى المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي ج 1 / ص 140.

(14)المعجم العربي نشأته وتطوره 392/1 .

(15)المصدر السابق ، 392/1 .

(16)الشاز: أصله من الأرض: الغليظ الصعب، وهنا مقصورة على العرب.

(17)مقدمة جمهرة اللغة (خطبة المؤلف، 3/1).

(18)المصدر السابق ، 4/1.

(19)من المفيد أن نشير إلى أن السيوطي أورد بيتا يجمع الحروف الألفبائية كلها:

صِفْ خَلْقَ خَوْدٍ كَمِثْلِ الشمسِ إذْ بَزَغَتْ يَحْظَى الضَّجيعُ بها نجلاءَ مِعطارِ

(بغية الوعاة ، 244).

(20)جمهرة اللغة ،167/1 باب الهمزة ومايتصل به من الحروف في التكرير.

(21)المصدر السابق، مقدمة المحقق، 16/1.

(22)المصدر السابق ، مقدمة المحقق، 14/1، 15.

(23)المصدر السابق ، 4/1.

(24)المصدر السابق ، 4/1.

(25)المصدر السابق ، ¼ ،7.

(26)تاج اللغة وصحاح العربية ،34/1.

(27)المعاجم العربية ، 488/2.

(28)تاج اللغة وصحاح العربية، 34/1.

(29)المصدر السابق ، 2259/6.

(31)معجم الشعراء من تاريخ دمشق لابن عساكر لحسام الدين فرفور(بحث ماجستير) في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق.

(32)القاموس المحيط (مادة دزج).

(33)لسان العرب (مادة دزج).

(34)المصدر السابق(مادة طسج).

(35)القاموس المحيط (مادة طسج).

بعض المصادر والمراجع المعتمدة

1- أساس البلاغة (أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى)، (المتوفى سنة 538 هـ)، تحقيق عبد الرحيم محمود وتقديم أمين الخولي، مطبعة أولاد أورفاند - الطبعة الاولى - القاهرة 1372 هـ/ 1953م.

2- تاج اللغة وصحاح العربية (أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري) ، (المتوفى سنة 393هـ/ 1003م)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي بمصر 1376 هـ 1956م.

3- تاج العروس من جواهر القاموس (أبو الفيض السيد محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الواسطي الزبيدى اليمني، الملقب بالمرتضى، (المتوفى 1205 هـ/ 1790م).

4- جمهرة اللغة (أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري)، (المتوفى سنة 321 هـ / 933م)، مكتبة المثنى ببغداد - مصورة عن الطبعة الأولى - مطبعة مجلس دائرة المعارف ، حيدر آباد الدكن 1344هـ.

5- العين: (أبو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي)، (المتوفى سنة 170 هـ / 876 م)، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، منشورات دار الهجرة - إيران - قم 1405 هـ.

6- القاموس المحيط والقابوس الوسيط (أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، مجد الدين، الشيرازى، الفيروزأبادي)، (المتوفى 817 هـ / 1415 م)، الطبعة الأولى-المطبعة الحسينية المصرية، 1330 هـ ، القاهرة.

7- لسان العرب: (أبو الفضل ، جمال الدين محمد بن مكرم بن على بن منظور الإفريقي المصري)، (المتوفى سنة 711 هـ)، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ، 1374 هـ / 1955م.

8- مختار الصحاح : (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي)،(المتوفى سنة 666هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت 1979م.

9- المعجم العربي - نشأته وتطوره (الدكتور حسين نصار)،مكتبة مصر - دار مصر للطباعة 1956.

10- المصباح المنير (أبو العباس أحمد بن علي المقري الفيومي)،(المتوفى سنة 770هـ/1368م)، مكتبة لبنان - بيروت 1987.